بولس السادس والمعضلة الاجتماعية

في رسالته «تقدّم الشعوب»

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

ترفع الكنيسة صوتها لتنير الطريق وتتحدّى قوّات الشرّ مهما كانت وعلت. وتصرخ ألمها عندما تشاهد آلام البشر وضيقاتهم وتتحسّسها؛ فتتدخّل اذاك في الشؤون الثقافيّة والاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ ورائدها الوحيد الدفاع عن الانسان الذي، في خوضاء عالم يتطوّر بسرعة، يحلم في السيطرة على المادة ويُخاف ان تستعبده هذه المادّة بالذّات في استثمار الأنانية والاثرة. ويُخاف أيضاً بعد أن يكون العلم قد أفاض على البشريّة من خيوره ما يعبّر عن عظمة الانسان ونُبله: أن تُسبّب له التقنيّة من ويلات الدمار والخراب أكثرها.

ولقد أثّرت على الاقتصاد الحديث الثورة الصناعية التي ما زالت تتطوّر وتتقدم منذ أواخر الجيل الثامن عشر. فما ان ادخلت التقنيّة الآلات المختلفة على الحياكة والنسيج حتى بدأت فترة تاريخية هامّة للاقتصاد الذي نشهد اليوم، مع التغييرات المدهشة، نتيجة قوّة تلك التقنيّة وانتصارها.

انما هناك عناصر غير هذه الثورة، لها اهمّيتها: ألا وهي جوّ التفكير الإجتماعي والسياسي والفلسفي في تلك الحقبة من الزمن التي شهدت ولادة النظام الذي يؤثر قوة الفرد ونفوذه حتى على القوة الرسمية والحكومية. فنشأت إذاك الفكرة الليبراليّة التي تدين بالحرّية السياسية وتعزّز المبادئ الفردية في الحقل الاقتصادي والتي كانت تجهل أو تتجاهل أن المزاحمة، وإن شرعيّة بذاتها وخصبة، ينتج عنها عدم المساواة والظّلم، إذا لم يوجّهها تفكير اقتصادي صحيح، هدفه خير المجتمع.

وهذا فالاختبار التاريخي يدل على أنّ المُشكلة الاجتماعية وُلدتْ في إطار تطاحن بين الرأسمال والعمل . فالتقسم المجتمع إذ ذاك إلى فئتين متعاكستين متنازعتين . كان لها التأثير العميق في حياة الأفراد والعيل والجماعات الإجتماعية . اضطرّ الكنيسة لأن تقف موقفاً صادقاً وواضحاً أمام الأوضاع المؤلمة .

فكانت . سنة ١٨٩١ . رسالة لاوون الثالث عشر « الشؤون الجديدة » . فيها رسم الحبر الأعظم المبادئ الرئيسيّة لتجديد وتنظيم إقتصادي اجتماعي يحترم الانسان في كرامته وحريته . فكان لها الأثرُ الفعّال . وكانت تؤدّي إلى نتائج خيّرة لولا تصدّت لها تيّاراتٌ قويّة : فكريّةٌ وعمليّة . في الحقل الثقافي وفي حقل التشريع والسياسة الاجتماعية والضمان الإجتماعي . ولولا عملتْ عناصر تخريبيّة على وقف فعّاليتها : الى أن صارت الفترة العصيبة بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ : حيث عمّت البطالة : في البلدان الصناعية : العدد الكبيرّ من الناس : وحيث غاب عن تلك البلدان بالذات تنظيم الاقتصاد وتوجيده . الاّ أن العمال لم يكونوا وحدهم إذ ذاك ليتألموا من عدم وجود التوجيه الاجتماعي الواقي : إذ صار المزارعون ايضاً والمحترفون عرضة للاضرابات المخيفة .

=

ولمّا كان هذا التعامي عن خدمة الإنسان واضحاً : قام بيوس الحادي عشر يُعلن سنة ١٩٣١ . في رسالته « السنة الأربعين » ، عن النتائج الايجابيّة التي وفّرتْها للعالم رسالة البابا لاوون الثالث عشر : إذ الحّت على ضرورة العلاقات الطيّبة بين الرأسمال والعمل . وأخذ بعد ذلك يرسم الطريق الجديدة لسياسة اقتصادية تستلهم لا نظريّة المزاحمة الاقتصادية : بل مبدأ العدالة الاجتماعية . ففي التقلّبات التي عانى منها المجتمع الكثيرّ من الاضطرابات ، والتي كانت تؤثّر على النّظام الاقتصادي : تطوّرت التقنيّة بسرعة ، وتكاثرت المواصلات ووسائل النقل والإعلام . وما كان ذلك الا ليظهر البون الشاسع بين متطلّبات تكاتف الشعوب وبين تحقيقها العملي ، على الصعيد الدولي . فبدا إذ ذاك الفرق بين الشعوب المتطوّرة والشعوب النّامية ، مع ما لهذه الأخيرة من سبل قليلة للعيش بالنسبة للسكان ، مع ما تقوم أمامها من حواجز تمنع الهجرة ، ومن الحدود التي كانت تقيمها البلدان المتطوّرة الثريّة أمام الاستيراد من البلدان الفقيرة ، فحصل اصطدام عنيف بين الرأسمال والعمل ، اصطدام كانت تُعطيه المعضلة الإجتماعية بادئ ذي

بدء لونه الخاص : فتطوّر الى اصطدام جديد بين الشعوب الغنيّة والشعوب الفقيرة . ولم تخفَ هذه الظواهر المؤلمة على الكنيسة : فرفعت صرختها وأنّبت ووجّهت النصائح البنّاءة .

وفي الواقع : قبل ان تنتهي الحرب العالمية الثانية ، أعطت الكنيسة المعضلة الاجتماعية أبعاداً جديدة : أبعادها العالميّة في رسائل وإرشادات بيوس الثاني عشر مع توجيهات وطرق ايجابيّة لمعالجة الموضوع.

إنما لم تكن السنوات التي تبعت تقلّص الاستعمار وشهدت ولادة الأوطان الجديدة المستقلّة الاّ لتدلّل بوضوح على الفروق القائمة وعلى عدم التساوي في المعيشة عند الشعوب .

فقامت إذ ذاك المنظمات الدولية والأوطان بمفردها وبمجموعة منها، تتكاتف للعمل على سدّ الثغرة هذه : وعلى القيام بمبادرات تحقّقها في سبيل البلدان النامية . بيد أن النتائج لم تكن مرضيّة ثابتةً أمينة . فكان على الكنيسة إذاً أن تجابه الأوضاع بما جمعته من اختبارات ومعلومات جديدة وحديثة عن المعضلة الإجتماعية وان تُعلن للمؤمنين ولغير المؤمنين ما بوسع المسيحيين أن يُعطوا عالماً في ذعر وتضعضع .

من هنا نبعت رسالتا يوحنا الثالث والعشرين : « أمّ ومعلّمة » « وسلام على الأرض » .

ففي الأولى قال الحبر الأعظم إن الكنيسة هي الأمّ الحنون لجميع ابنائها الذين هم ابناء الآب السماوي : تحافظ على الحقيقة الموحاة وتعمل على استثمارها بتطبيقها على الواقع في كلّ زمان ومكان ، وبخاصة في ايامنا الراهنة .

امّا في الرسالة الثانية فدعا يوحنا الثالث والعشرون الى ذلك السلام الباطني الذي هو أساس السلام بين البشر. غير أن على الانسان أن يحافظ على هذا السلام بواسطة المؤسّسات التشريعية والسياسيّة ، الوطنية والدولية: إذ به تزول العداوة بين الغنيّ والفقير ويتكوّن تكاتف صادق بينهما لخير الجميع .

٥

إنما نعلم كلّنا أن الواقع المؤلم لعدم المساواة بين البشر ليتضح اليوم للرحمة أنه يجعل السلام في خطر. وهذا ما حمل قداسة البابا بولس السادس على أن يُعلن للعالم قاطبة في رسالته « ترقّي الشعوب » التي نحن في صددها:

وبكلام ينضح ألماً وأملاً في الوقت عينه : ما هي عليه اليوم تلك المشكلة الشائكة ـ المعضلة الاجتماعية .

٥

يعود البابا مراراً الى ان البشرية اليوم على مفرق طرق وانه لمن الواجب على ضمير كل ذي ارادة صالحة ان يهبّ للتكاتف مع اخيه في عمل موحّد يعزّز تقدّم الشعوب ـ وخاصة تلك التي تُعاني داخلياً وخارجياً المعارك القاسية في سبيل حرية رزحت تحت وطأة الجوع والمرض والجهل . وما عاد الانسان بعد ذلك سوى شيء بين الأشياء لا تميّزه عنها ميزة انسانية . ففي ايّام مليئة بالتطوّر العلمي يريد الناس اليوم مشاركة أوسع في ثمار التمدّن ويتوقون إلى تنمية أجدى لصفاتهم الطبيعية الانسانية وليس الى ذلك من سبيل الا في التطور الاقتصادي والاجتماعي والعقلي ، اي في تطور انساني كامل ، هو الطريق الوحيدة التي يجب اتّباعها ـ هو الطريق الوحيدة الخليقة بالانسان ـ هو وحده أساس السلام الحقيقي .

٥

لن أتبع قداسة البابا بولس في تحليل رسالته الثرية بنداً بنداً ، انما اود ان اقرأها كلها من هذه الناحية الاساسية التي تُعطيها معناها ومغزاها : الإنسان محور التفكير وأساس العمل .

هذه النظرة الى الانسان بكامله لا تنبع من اهداف سياسية او تقنية محض : ولا من غايات اقتصادية : انما يريد فيها البابا العودة بالانسان الى المعطيات الاساسية التي لها في حياته أبعاد بدونها تسودّ الآفاق وتظلم القلوب . ولهذا فاذا تكلم الحبر الاعظم على ترقي الشعوب في المعنى الذي نوّهنا عنه ـ فانما يفعل ذلك مستلهماً كلام المسيح ومحبة الله للانسان الذي خلقه على صورته ومثاله وجعله شريكاً له في هذه الحياة الدنيا ليبني عالماً على صورة ومثال من عليه ان يعيش في هذا العالم فيكرّسه ويعطيه امارات وجه المسيح لخلاص الانسان نفسه . وليس بامكان الكنيسة ان تُعطي الانسان نوراً ليفهم نفسه ، وزخم عمل ليستثمر كل امكاناته : وليس بامكانها ان تقوده الى الباطن ليصغي الى صوت الاعماق التي فيها يسمع صوت الخالق ، ما لم تعد مرّات متأملةً كلام ربّها ومستخلصةً منه لإنسان اليوم ما يسانده في المسيرة الأرضية ويُعطيه فرح القلب وغبطة الحياة .

٥

من قمة المرصد الذي يسكنه البابا . وهو يتطلع الى عالم يتخبط في مشاكل الفكر والعمل وفي عجعجة التغيرات والآمال . احب بولس السادس ان يقول لنا الاسباب التي حدته : بعد الاختبار . على الكلام . وبعد ذلك يعود فيحلل الانسان في جوهره وطبيعته . وينتهي فينادي البشرية كلها طالباً الى القسم الصغير منها ان ينفتح قلبه بعيداً عن الأنانية والاثرة . ويطالب القسم الاكبر منها بالقناعة المجدية والمحبة الصادقة ـ فيلتقي كلاهما إذ ذاك في معانقة أخوية وتجاوب عميق وتكاتف نحو الخير في سبيل بشرية تتألم وتتأمل .

=

الظروف المواتية للرسالة البابوية والحاجة الى كلمة يُهتدى بها

١ ـ الفكرة الاولى : للانسان غاية فيها تلتقي حياته الارضية وحياته الروحية دونما تفرقة

« ... أمّا النور الحقيقي الذي ينير كل انسان فكان آتياً الى العالم » (يوحنا ١/٩) . هي الكلمة التي تجعل الانسان في هدي مستمر : لو أراد ان حياته كلها ، ومصيره الى الغاية لن يفهمها الا بنور الكلمة المتجسّد . وكذلك البشريّة بأجمعها : فانها لن تتفوق من غفوتها ولن تتفوّق على الأثرة التي تفكّك رباطات الإلفة والمحبة بين افرادها ، وإن كانت الفروق عظيمة عرقية او ثقافية وغيرها ، الا بهدي من هو النور والطريق والحق والحياة . والمسيح الاله ، منشئ الكنيسة أودعها رسالته وقوّاها على القيام بها لتحمل الى العالم بشارة الخلاص وتعلن للانسان ، اينما كان : ان الله اراده اخاً للانسان اخيه : وان البشرية وحدة ، خلقها الله وهو غاية مصيرها .

وما علاقة هذه البشارة بالوحدة والتفوّق على الانقسامات بتلك الرسالة الروحية التي اقام المسيح رسله دعاةً لها وشهوداً لتحقيقها ؟

لا ينقسم الانسان الى ارضي وسماوي . فاعماله الارضية كلها تسبة الى السماويات ؛ واعماله الروحية لن تتم الا على الارض في الجسد والمادة . طالما الانسان في غربة عن الوطن الحقيقي الواحد . ولهذا فاذا ما قالت الكنيسة كلمتها في الانسان وعمله الأرضي ، فانما هي تُصغي الى رسالتها وتعمل بمتطلباتها حسبما يعبّر عنها الانجيل بوضوح تام . وهذا ما قاله الحبر الأعظم في خطابه الفصحي سنة ١٩٦٧ عندما قال : « ها قد حان الوقت لنقول

كلمتنا المتواضعة . كلمة الأمل . لا الأمل الديني فحسب : بل الأمل الاجتماعي . لا الأمل الأرضي فقط بل الروحي ايضاً . وليس ذلك فقط للذين يؤمنون بالمسيح ، ولكن للناس أجمعين » .

فلا غروَ إذاً : فان الكنيسة اذا ما قامت بخدمة الانسان : فانما تعمل بروح الانجيل . إذ انها عبثاً تريد نشر كلمة الحياة التي تجسّدها في اوضاع الانسان وحياته وافتراباته وافراحه . فابن الله — الكلمة صار جسداً وحلّ فينا وأخذ كل ما هو لنا . ما عدا الخطيئة — ليعطينا ما له ويؤلّه الانسان ويُعيد اليه روح البنوّة الذي كان قد غاب عنه في الخطيئة وفي الابتعاد عن الله .

ولهذا التقى الكلمة — الاله مع ما في الانسان من عمق . التقى مع ما فيه من توق وشوق إلى التسامي . فانسان اليوم الذي يصبو الى ان يكون الهاً ، وان يرتدي بصفات الله : القدرة والعظمة ، والذي يودّ ان يصير الانسان الكامل : فيا هو الكلمة يقول له ان الانسان الكامل باستطاعته ان يتمثل به وان لا طريق له الى الكمال المبتغى الا بتروّيه به . فطموح الانسان تمّ في الكلمة المتجسّد . وهذا احسن ما للايمان اليوم أن يُعطيه لانسان اليوم . وبهذا يكون قد أعطى لعمل الانسان معنى ولتوقه غاية ولتسامية هدفاً .

وفي هذا التوجيه تصير كلمة الكنيسة هذه ورسالتها في ترقّي الشعوب نبراساً يُقتدى به وعلامة تدل على الطريق . فهي تودّ ان تكون في قلب المعارك التي يخوضها الانسان : تودّ ان تحمل العالم ليكون في ما تبثّه له من شرائع ما تهديه اليه من حياة فيحيا ذلك العالم الذي تهيمن عليه المحبة والذي فيه يتكاتف إخوةٌ طالما فصلتهم الأثرة والانانية وابعدتهم عن بعضهم غطرسة السلطة والتسلّط . ولهذا فهي ترفع صوتها عالياً داعيةً اولئك وهؤلاء الى العودة الى الباطن : الى التفكير والتبصّر ، منادية الانسان ليصير اكثر إنسانية ، صارخةً بكلّ ما لها من قوّة في صحراء هذا العالم حيث التنافس يسكت صوت الضمير ليعود الانسان الى نفسه والى ما فيه من ثروة في الاعماق ويعود ايضاً الى الإنسان أخيه : فيحمل اليه لا كلمة الذلّ والانتصار ، كلمة الحقد والضغينة ، ولكن كلمة التكاتف والإلفة والمحبة ليناء عالم اكثر إنسانية .

وبهذه الدعوة تكون الكنيسة قد أصابت هدف وجودها على الارض : الا وهو خدمة الإنسان الذي تحترم وتجلّ ، ذلك الإنسان الذي خلقه الله

على صورته ومثاله واقتداء المسيح الاله بتجسده وموته على الصليب وانتصاره على الموت . فعلى غرار المسيح يجسّها في الانسان كل ما له وكل ما هو منه حسبما اراده الله : افراحه افراحها . آلامه آلامها . فهي تساندد كي ينال تفتحاً كاملاً فتعرض عليه ما هو من كنه وجودها ورسالتها ومن كنه الانسان وهدفه : نظرة كاملة لا جزئية الى الانسان والبشرية في سيرها إلى الخالق على أرض اكتنفتها الغموض وصارت خالية خاوية . لا معنى لها لولا نور الايمان ينير معالمها ويعيد لها الرجاء في ذلك الذي اتى ليخلصها والمحبة الصافية .

الفكرة الثانية – على الانسان للوصول الى هذه الغاية ان يتفوّق على نفسه . وفي هذا التفوّق معركته الأساسية

ما من احد ينكر على الكنيسة أنها تتوحّد في تفكيرها وحياتها حول المسيح منشئها ومصدر حيوّتها : تستلهمه في أعمالها وتعود اليه دوماً لتتعلم منه كيف تكون في هذه الارض مكمّلة لرسالة الكلمة المتجسّد . ولهذا فليس لها من عقيدة خاصة بها ولا من فلسفة تُعطي الانسان بعض التوجيهات العقلية والاخلاقية . انما عقيدتها المسيح وليس الاه من تفتّش بقربه عن آفاق تطبيقية تشرح الآفاق الالهية والانسانية التي اتاها بها المسيح لاحقاق ملكوت الله على الارض بواسطتها . فالكنيسة اذاً تعمل الانسان على التعرف في المسيح الى من هو اصلاً والى ما عليه ان يصير في تطوّره الانساني الكامل . وهذا التطوّر ليكون صحيحاً وبعيداً عن الفساد والغلط ، عليه ان يعمل الانسان على الاندماج الكلّي بالمسيح فيتفتّح اذ ذاك ويتوصّل الى انسانية تتسامى فوق الترّهات وتُصبح في امان من كل سفسطات فلسفيّة تود ان تحصر الانسان على نفسه فتجعل منه غاية التطوّر الاقتصادي ليس الا ، او بالحري تجعل منه ذلك الذي يوحي بالتطور الاقتصادي ؛ لأنه من الخبز وحده يحيا .

والانسان لن يصير اكثر انسانيّة الا بالمسيح وما يعطيه اياه المسيح من قيم تسانده في حياته الدنيا وتساعده على الا يهبط أو يتزلق إلى مهاوي الفراغ ، وأي فراغ اكبر من ذلك الذي يحدّد الانسان بالبطن وبالخرنوب ، كما كان يقول بولس الرسول عن الانسان الارضي الذي لا هدف له في الحياة الا الارض .

ومن بين تلك القيم الايمان الذي يحمل الإنسان على صفاء حياة وأمانة لله وللتوق العميق الذي يصرخ في الاعماق انك خلقتنا يا الله. وسيظل القلب حائراً الى ان يثبت فيك، على حد قول القديس اغسطينوس.

ومع الايمان المحبة التي تجمع حول المسيح كل ابناء البشر ليشاركوه عملياً في بناء الملكوت.

وهاتان الفضيلتان تعطيان الإنسان معنى حياته وتجعلانه يتسامى دوماً الى فوق. إلى المطلق. حيث يرتاح إلى نفسه ويشاهد الله في عطاء مستمرّ لا ينضب معينه اذ الينبوع هو الله والمصدر الأوحد هو الخالق.

ويشعر اذ ذاك بان الايمان والمحبة هما ايضاً على تطوّر في حياته: يقتضيان منه التجرّد ونكران الذات والجهد المتواصل الذي به يصير الإنسان انساناً حقاً بعد أن يكون احتمل الألم وذاق المرّ بمحبّة في سبيل إخوة له: ليقود العائلة البشريّة بكاملها إلى التقدّم. وفي هذا الجهد يختبر الإنسان مدى التسامي الذي هو مدعوّ له: فيتجاوز دوماً الحدود التي وصلها الى انطلاقة أوسع، وهذا هو الترقي الصحيح، الذي يجعل من الانسان مصدر اخوة وعلامة العناية الالهية بين اخوة له.

الفكرة الثالثة ــ للانسان محور تفكير الكنيسة في صلته مع المحور الأوحد: المسيح الانسان الكامل

وانّى للكنيسة ان تهتمّ لهذه الدرجة بالانسان؟ انّى لها أن تعير تطوّر الانسان وترقيه وتقدّمه ذلك الاهتمام. اليس في ذلك خوف من ان تنحصر في هذه العناية وتضرب عرض الحائط بكل ما في الانجيل من دعوة الى التطلّع الى فوق، الى الله.

هناك، ولا شك، خطر البقاء على صعيد بشري، إنساني محض. انّما الكنيسة بادئ ذي بدء: اذا اعتنت بالانسان فما ذلك الا فيض من رسالتها، وأمانة في عنقها، تقتدي في ذلك بالمسيح وتتجسّد في أوضاع تكرّسها وتقدّسها وتعلّم ما هي للانسان. انّما لا تقف عند هذا الحدّ بل تتجاوزه وتكشف للانسان عن الوسائل التي تسانده في تحقيق غايته وفي السير بالبشرية الى الامام. تكشف له عن حقيقته وعن سموّه وعن عظمة هدفه حسب ارادة الله وتسير به صعداً. ولكنّها لا تدّعي أن لها حلولاً

سياسية أو تقنية وخاصة في هذا العصر التقني . وتكفي الانسان ذكاءه ومهارته ليبعد حدود المعرفة كل يوم الى اقصى ما يمكنه : فهي تصيب في الإنسان متطلباته الأساسية : مصاحبته لمسيح وخلاصه . وهذا فالحلول التي تعرضها لترقي الانسان وبالتالي لترقي الشعوب . إنما هي على صلة وثيقة بهذه المتطلبات دون غيرها . تعرض . في صلتها بالعالم . حلولاً تخدم تقدم الانسان ووحدة البشرية . وفي ذلك تتحسس الكنيسة كل ما يبعد الانسان عن نفسه وعن إخوته ، كل ما يسجن فيه حقيقة الله وكلامه ؛ وفي الوقت عينه كل ما فيه من طموح وتوق . فالكنيسة على حد قول المجمع المسكوني في دستوره عن الكنيسة ، هي سر ، اي علامة ووسيلة للاتحاد الوثيق بالله ، وعلامة ووسيلة للوحدة بين بني البشر .

الفكرة الرابعة ــ وحدة البشرية

يستنتج مما تقدم ان من يعمل على تحقيق وحدة البشر فيما بينهم ومع الله ، يعمل في سبيل التقدم الشامل . اي في سبيل كل انسان وفي سبيل الانسان بكامله . ومن يحمل الانسان على ان يتقدم دوماً في انسانيته وعلى ان تصير الاوضاع التي تعيش فيها البشرية اكثر ملاءمة لطموح الإنسان وتوقه الى التسامي : يعمل ايضاً في جذبه الى الله . وأخيراً من يقود الانسان الى التمرس بمسؤوليته الشخصية والى العمل على نمو البشرية ونموه الذاتي ، فهو يحرره ويجعله شريكاً فعالاً لله في بناء المدينة الارضية : وبذلك يعمل على توحيد ابناء العائلة البشرية بأسرها .

إلى هذا ترمي الكنيسة في عملها كله وهي تشهد أن الانسان هو امل الله وموضوع اهتمامه ، اذ أقامه حراً ، يخاطبه ويجعله شريكاً له ويتناده ويوقظ ضميره بواسطة كتبه لكي يتعرف الى بنوته ويعمل بها ؛ اذ انه ارسل ابنه الوحيد الذي به كون كل شيء في السماء وعلى الأرض ، ذلك المسيح الخادم والمتألم : ذلك المسيح المنتصر على الموت يجامع الكون والبشرية كلها .

فعلى الكنيسة اذاً ان تشيد للامل الذي لله في الإنسان . دورها في ان توقظ حريات مسؤولية .

هي المبادئ الأساسيّة التي تُعطي الترقّي وجهاً وضوحاً سامياً وتحدّد صلته برسالة الكنيسة التي هي، على الارض، تتميم لرسالة المسيح. انما علينا الآن أن نلج كلام قداسة البابا بولس لنحلّل بدقّة اكبر معطيات هذا الترقّي.

هناك بلاد تعاني الجوع والبؤس ومصائب الحياة العديدة، امّا لفقرها وامّا لكثرة سكانها وامّا للسببين معاً. وهذا الجوع يكوّن اليوم صرخة تهزّ ضمائر البشر، وبخاصة تلك التي تهبّ من داخل البلاد المتخمة التي تتصرّف بالمال وكأن المال لها وليس لتخفّف عن الانسان ما يجعله يرزأ تحت ثقل الفقر والعوز ويمنعه من ان يكون انساناً حقاً، اذ هو شبيه بالحيوان يستعطي ولا ينال ويعود الى درجة انسانية منحطّة لا يتميّز فيها عمّا دونه في الخلائق. وهذه الصرخة تجعل الكنيسة اليوم ترتعش حزناً وامتعاضاً وتنادي الانسان لينظر الى اخيه الانسان دون مواربة او انانية او حبّ التسلّط. فانهما يشتركان في الانسانية نفسها وهي التي تخلق بينهما صلة عميقة تتسامى فوق الأنانية التسآلة.

لهذا فان البابا يدعو من تكاثرت الثروات بين أيديهم الى العودة الى الضمير، والضمير اليوم أمام بؤس الكثيرين ليدوّي في اعماق البشرية يستحلفها الاّ تترك من بهم فقر وجوع بل ان تساندهم في الانعتاق منه وفي السير نحو انسانية أكمل ومسؤولة.

والكنيسة إذ تصرخ عالياً مرارة الزمن تقول للانسان ان الترقي والعمل من اجله جزء لا يتجزأ من دعوته الأصيلة. والانسان الذي لا يتطوّر ولا يتقدم ولا يساعد الغير على النموّ والتقدم بوضع امكاناته كلها: أدبية او عقلية او جسديّة، في سبيل انجاح أخيه الانسان فان هو الا ذلك الذي يُسهم في تدهور الكون والبشرية: في تدهور انسانيته بالذات. وقد كُتب له ان يساعد البشرية وان يجعل من الانسان أخيه رجلاً يعزّز وينمو، أن يجعل منه انساناً حقاً.

إنما ليست المساهمة فقط في المادة والدنيويّات. المساهمة في انسنة الانسان تقوم ايضاً على خلق جوّ من الحرية والمسؤولية. فهناك جهود لاستتباب العدل والعدالة والمشاركة والمحبّة إلى أن ينعم كل انسان والناس كلّهم وكل بلد ويصبحوا العامل الذاتي لتقدمهم وترقّيهم. اذ ليس من المعقول أن ينعم فريق من البشر بالحرية ويحرم منها القسم الأكبر من

البشريّة دون ان يُعطى الوسائل الملائمة للانتصار على الجهل والعوز والفقر والتحرّر من ربقة الجوع فيسلم إذ ذاك الانسان ويسير إلى غايته فرحاً .

وعلاوة على ذلك فان حرية الانسان ليست فقط اقتصادية . الحرية تشمل الانسان بكامله . شرعيّ ان يسدّ الإنسان حاجته . شرعيّ ان يستعمل الوسائل لذلك . شرعيّ ان يدّخر من المال ما هو بحاجة اليه ويستخدم الباقي لمشاريع يفيد منها المجتمع. امّا التفتيش عن الثروة فقط يقوم حاجزاً أمام نموّ الكيان والجوهر وعظمة الانسان الحقيقية . اذ القيمة هي الانسان. وغاية الترقي ان يخدم الانسان والمجتمع والمدنيّة والقيم الروحية : لا سيا لقاء الإنسان بخالقه في المسيح ، الانسان الكامل ؛ لا سيا ايضاً لقاء الانسان بنفسه وقد صارت القيم العليا حليته : من حبّ وصداقة وصلاة وتأمل . وبهذا يتم الترقي الذي ليس سوى العبور من اوضاع اقل انسانية الى اوضاع اكثر انسانية .

امّا على كل فرد من افراد المجتمع الذي يعمل لتقدمه الشخصي ان يعلم حق العلم انه بتكاتف مستمر مع اخيه الانسان ، شاء ام ابى . فالبشرية وحدة متراصة . فمن يعمل على التقدم ، مسؤول عن تقدم اخوته في الانسانية . وأن نرى اليوم شعوباً باكثرية سكانها ترزح تحت وطأة العوز والجوع ، فما ذلك سوى الدليل على عدم تقدم اجتماعي وادبي وروحي عند الشعوب الثرية . فالمسؤولية جماعية ولن يكون الترقي كاملاً الا اذا كان في تكاتف الفرد مع أخيه ، والبلدان مع بعضها . ومن هذا التكاتف ينبع توحيد صاف للحياة الدولية بأسرها .

من الطبيعي ان يبدأ بالعمل بهذا التكاتف الأفراد والجماعات والبلدان التي تنفيض عنها الثروات فيوجّهوها الى غيرهم ويعزّزوا بهذا عالماً اكثر انسانية للجميع : حيث على الكل ان يعطوا وان يأخذوا دون ان يكون تقدم الواحد حاجزاً أمام تقدم الآخر .

ونكون هكذا قد سرنا الى خلق الأجواء حيث لا تفرقة عرقية او جنسية او دينية ، يعيش الانسان حياة انسانية كاملة ، حرّة من كل عبودية خارجية في عالم حيث كلمة الحرية ليست كلمة فارغة .

•

التقدم مرتبط بالمصير الانساني ، وهذا المصير متعلق بالتقدم والترقي. فما العمل للعبور من الشكليات والكلام الى العمل والنتيجة الفعالة .

يتطلّب هذا الترقي تغييرات كثيرة وتجدد الاعماق . وبما أن مشكلة الانسان تطرح اليوم في جوٍّ من التوتّر والمعارك الايديولوجيّة . فمن الحكمة العجلة في العمل وفي سدّ الحاجة الى الحلول . وعلى كل منّا ان يتساءل اذا ما كان مستعداً لمشاركة أخيه الانسان في إنماء الإنسانية . أيكون كل منا من بناة التقدم أي ممن يوقظون الضمائر . في سبيل خدمة البشرية والصالح العام . انما يعتري الإنسان في القيام بواجبه هذا شيء من الذعر اذ ليس بمكان فرد ان يعمل اليوم وحده : وابعاد البشرية أبعاد كونيّة . فعلى المجتمع بأسره ان يتجدّد : على الدولة ان تخوض معركة الانسان وكرامته لتحسّن الاوضاع وتجعلها اكثر انسانية : وتتعاطى مع البلدان الأخرى لتجعل التوجيه الاساسي في المعاملات توجيهاً خيّراً يعتبر فيه الانسان لا خادم الاقتصاد بل غايته ، ويعتبر الاقتصاد خادم الانسان في ترقّيه . ولهذا يعتبر من الواضح ان التملك على الخيور الأرضية خلاقٌ بذاته ولكن في خدمة الجميع . فتصبح الصناعة الضرورية للنمو الاقتصادي وللتقدم الانساني علامة وعاملاً للتقدم والترقي .

انما الوعي الوطني يقضي بان يصبح كل شعب من شعوب الارض اكثر انتاجاً فيعطي بنيه مستوى حياة انسانية حقاً ويسهم في تقدم البشرية بتعاون اعضائها .

إذ ذاك يؤول العمل الجماعي المنظّم الى توزيع عادل لخيور الارض والى تنميم الثقافة ببرامج وتوجيهات تعطى على الصعيد الدولي .

•

تتطرّق الرسالة البابوية بعد ذلك الى مشاكل دقيقة فتردد مع توما الأكويني وبيوس الثاني عشر وعلماء الاجتماع المسيحيين ان للملكيّة صفتها الاجتماعية وغايتها الاجتماعية ؛ فتنتقد الليبرالية في الاقتصاد والقواعد المتّبعة في التبادل التجاري والحرية في استعمال العائدات ؛ النّهم اذا لم يكن في كل ذلك مبدأ اخلاقي يوجّه وينسّق . فكل خيور الأرض هي في خدمة الإنسان ، في خدمة تفتّحه الشامل وفي خدمة الناس اجمعين دونما تمييز . ومن الضروري ان يحرّر الانسان من كل عبودية تنتج عن الملكية والرأسمال والليبرالية . وما تبقّى من حقوق : حق الحرية في التبادل الاقتصادي وحق الملكية فانها تخضع لهذا المبدأ الأساسي وعليها الا تعرقل المساعي لتحقيقه بل ان توآتيه . ومن الضروري ان تُعاد كل هذه الحقوق الى غايتها الاولى .

فالملكية الخاصة ليست حقاً مطلقاً غير مشروط وليس لانسان ان يحتفظ لنفسه بما يتجاوز حاجته عندما يرى أناساً في العوز .

والاقتصاد ليس للكسب والمزاحمة بين المتنافسين . غاية الاقتصاد خدمة الانسان .

وقواعد التبادل التجاري الحرّ ليست وحدها تلك التي توجّه العلاقات الدولية . عليها ان تخضع للعدالة الاجتماعية : وذلك بان يدفع الثمن العدل للمواد الاولية التي تنتجها البلاد النامية . وبان تثبّت بين الشاري والبائع مساواة في النفع بعد ان تكون ثبتت بينهما مساواة في الحوار والمعاملات التجارية .

امّا ما لا يجوز أن يغرب عن بال هو ان ما يفيض في البلاد الثريّة من الخيور يجب ان يقدم للبلاد النامية . ولا يسمح لبلد من البلدان الثّرية ان يبذّر . فالضمير السليم يأنف من التبذير اياً كان . على صعيد الغطرسة الشخصية او الوطنية او للتسلّح .

•

لن يصبح الانسان انساناً كاملاً الاّ اذا انفتح على آفاق الثقافة والتربية . فمن برامج تدرس وتعرض وتختفي الى احترام الموجود من ثقافة ومدنيّة عند شعوب أكلها العوز المادي ، الى تشجيع ما يظلّ : حتى بعد قرون : بدائياً ليتطوّر وينضج ، كل هذا يساعد الجميع على بناء مدنية عالمية : تتكاتف فيها الإرادات الصالحة والتي تنبع من احترام الانسان لاخيه الانسان ومكالمة بينها أساسها الاخوّة والمحبة . إذ ما معنى الاقتصاد والتقنية والعلم الّم يوضع هذا كله في خدمة الانسان ليكتمل ويثمر ثماراً يانعة يهيىء للاجيال الطالعة عالماً تسوده الإلفة والتكاتف المستمرّ .

ولكن أينجح الانسان في هذا ؟ اليس بحاجة لتساند جهوده الى مؤسسة عالميّة تضمن : بقوة القانون والتشريع ، تطلّع الانسان الى فوق مع اخيه الانسان وتجنّد باستمرار انسنة البشر في سيرهم الى الكمال .

خاتمة

أنشتم من خلال هذه الافكار التي عرضتها والتي هي أفكار البابا بولس السادس في رسالته « تقدم الشعوب » ميلاً إلى الشيوعيّة ام إلى الاشتراكية المتطرّفة ؟

إن الخاحي انطويل : في القسم الاوّل من هذا المقال : على الانسان وعلى غاية حياته : وعلى صلته العميقة : الكيانية بالمسيح التي يقوم عليها اذا ما عاشها حقاً في واقعه اليومي : اكبرُ تقدّم وتطوّر وترقّي : ليُبعدنا كل البعد عن الشيوعية الملحدة التي تنكر وجود الله ولا تُعطي الإنسان أبعاده الروحية : تلك الأبعاد التي هي حقيقة الانسان . وعلاوة على ذلك فان الشيوعية : وإن اعطت الاقتصادَ حلولاً وافية . فانها لتظل عاجزة عن حلّ الغاز الحياة ورموزها : عن اعطاء الانسان معنىً لحياته : ذلك المعنى وتلك الغاية التي يتوق اليها الانسان والتي لا يجدها في الخرنوب الذي يملأ جوفه ولكن في كلمة الله المتجسد الذي تُعطيه الكنيسة للبشر نوراً وهدياً .

ولكنّ هذا لا يعني — وقد نوّهنا بذلك سابقاً — أن الرسالة البابويّة لا تعترض على أوضاع فيها ظلم وجور . انما الاعتراض ليس سلبياً وهداماً : ولكنه يدعو الى البناء ، بناء عالم حيث يستطيع كل انسان ان يعيش حياة إنسانية كاملة : وحيث الحرية ليست كلمةً فارغة . والترقي يقتضي تبديلاً جذرياً : ثورة اساسية تقوم على الإنابة الى الله وعلى المشاركة وعلى الحق. فالمشكلة اذاً هي مشكلة روحية سياسية قانونية وادبيّة .

واذا ما كان على المسيحي وعلى كل ذي ارادة صالحة ان يحارب الفقر وان يقاوم الظلم : فما ذلك الاّ لأن عليه ان يعزّز التقدم الانساني والروحي : اي خير الانسانية الشامل . اذ السلام ليس فقط في انعدام الحرب . السلام يُبنى يوماً بعد يوم : وذلك في تحقيق نظام أراده الله .

وهذا البرنامج ليظلّ نظرياً وفي عالم الخيال لولا نفوذه الى صميد العمل . دقّت ساعة العمل وحان الوقت . ان حياة العديد من الاطفال الابرياء والتوصّل الى اوضاع انسانية في عيل هجرتها الكرامة لكثرة فقرها ، كل ذلك يدعو في خطر الم يهبّ الانسان الى نصرة الانسان اخيه .

إنما قداسة البابا لم يعط برنامجاً للعمل . وهذا لا يدخل في نطاق رسالته.

فهو يدعو الى الحوار: الى التبادل والاتفاقات والمعاهدات الدوليّة والى القوانين العادلة والى العمل المشترك والمنسّق: في روحانية عالية. ومآل هذا كلّه تكوين التاريخ البشري اليوم.

واذا كانت القوة في عصرنا الراهن تجربةً للانسان في عالم جامد حيث امتيازات البعض لا ترضى عن هذه الاوضاع بديلاً. وكأنها صارت بمثابة التحدي الآخرين:

اذا كانت القوة ميزة عالم تكاد تهجره روح التناغم: فهناك امكانات يستطيع بها الانسان أن يخلص: فيبدأ بتنظيم عالم حسب أسس صحيحة عادلة: ببناء عالم انساني حقاً. وبهذا لا تعود البشرية التقهقرى الى عصور مظلمة قاتمة: او بالحري لا تسير نحو موت محتّم. وقداسة البابا يردّد لنا الامل في أنّ للترق الى التعاون عند جميع الناس النصر على الأنانيّة والأثرة.

ه

وفي معرض كلامنا هذا نقول أن قداسة البابا بولس لم يتكلّم عن توزيع الملكية ولكن عن معناها الاجتماعي في خدمة الآخرين — وهذا امر لا يتجادل فيه اثنان — فالتوزيع يتعلّق بظروف كلٍّ من البلدان وبتطوّر العقليّة وبالأمل في انجاح عملية كهذه عند شعوب دُرّبت على الافادة منها.

ه

لقد رسمت الخطوط الكبرى لرسالة البابا بولس السادس في تقدّم الشعوب: وهي الخطوط التي يبرز من خلالها تقدّم شامل في تعاون متبادل.

كان عليّ ان اذكر كل ما يعترض هذا التقدم من صعوبات وعقبات كالقوميّة والعنصرية مثلاً: وأن اذكر بعض المعضلات كالعائلة في عصرنا الراهن ومشكلة تحديد النسل: الى ما هنالك من أمور تطرّق اليها قداسة الحبر الأعظم.

إنما من خلال ما تقدّم نرى أن علينا أن نغيّر العقليّة وهذا يتطلّب اختياراً وعملاً على كلّ الأصعدة حتى السياسي منها. والاختيار يقتضي منّا جرأةً للاقدام والثبات. فعلى المسيحيين، يقول بولس السادس: أن يُنعشوا بالروح المسيحية العقليّة والآداب والشرائع وبيئات الحياة: فهناك تبديلات ضروريّة وتغييرات جديدة.

ه

إن رسالة البابا بولس السادس نبعت من قلب مسيحي متألم لاوضاع لا تمتّ الى الدين المسيحي بشيء: كان عليه بعد ذلك في كل سفراته ان يردّدها في بومباي ، في بوغوتا او في جنيف . وما ذلك الترديد سوى التعبير الوافي عن دعوة يوجهها للفقير فرداً كان او بلداً ليوقظه من سباته ويدلّه على الطريق . وما هو ايضاً سوى الدعوة الصاخبة الى الثري . فرداً كان او بلداً . ليعي واجباته في عالم تطوّر فيه العلم والتقنية . وينفتح لآفاق التكاتف والحوار والاخوة.